

زى المرأة السودانية والتغير الاجتماعى

سامية الهادى النقر

تهدف هذه المقالة للقاء نظرة سريعة على زى المرأة السودانية خاصة فى المدن فى شمال السودان وما طرأ على هذا الرى من تغيّرات عبر الزمن وما لذلك من ارتباط بالتغيّرات الاقتصادية والاجتماعية عامة والتغيّرات التى طرأت على أوضاع المرأة خاصة .

الرى عنصر ثقافى يرتبط بغيره من العناصر الثقافية مثل الأعراف والمعتقدات والعادات والتقاليد، ويتأثر بالظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والبيئية التى تعيش فيها المجموعة . ولذا فإنّ ما يطرأ من تغيّرات فى ظروف المجتمع قد يكون له أثره فيما يرتديه أفراد المجموعة من زى . ولكن عموما بما أنّ الرى يرتبط بالمعتقدات والتقاليد فالتغيّرات تكون شكلية أو تتم فى ببطء، وفى إطار هذه المعتقدات والتقاليد . وقد يمر زمن طويل قبل أن يحدث تغيير واضح وعام فى مجتمع ما فى ما يرتديه أفراداه .

وقد يصعب تتبّع التغيّرات التاريخية التى جرت لرى المرأة نظرا لمحدودية الدارسات فى هذا الباب غير أنّه بالاستعانة بالقليل الموجود من دراسات وما تمّ جمعه من معلومات من مقابلات مع أشخاص من أجيال مختلفة سيتم إلقاء الضوء على ما طرأ من تغيّر على زى المرأة السودانية الحضرية وسيتم التركيز على معتمدية الخرطوم لأنّها أكثر تحضرا مقارنة بالأقاليم الأخرى وتتمركز فيها كل الخدمات الاجتماعية ووسائل النقل الى داخل وخارج السودان، كما يتم فيها تفاعل عدّة مجموعات من داخل وخارج السودان . ولهذه الأسباب تصبح سمات التغيّر الاجتماعى أكثر وضوحا فى الخرطوم من الأقاليم الأخرى .

تأتى أهمية موضوع الرى لعدّة اعتبارات :-

أولا: إنّ الرى أصبح عنصرا هامّا لدى النساء للتمييز الاجتماعى والسياسى بين صفوفهنّ، وبدأت بعض الجماعات تعده عنصرا هامّا للدلالة على سلوكيات معينة .

ثانيا: إنّ ظاهرة التركيز على الرى قد تنذر بانعكاسات سلبية على وضع المرأة ووعيها وتوجّه التغيّرات فى أوضاعها .

ثالثاً: إنَّ ما يشهده السودان من تدهور اقتصادى وما طرأ من تغيّرات واهتمام بالرّى قد جعل الرّى عبئاً اقتصادياً على الأسرة .
رابعاً: وأنّه بالرّغم من الاهتمام المتزايد فى العقدين الأخيرين بدراسات المرأة فى السودان فإنّ هناك غياب تام لدراسة متعمّقة لموضوع رى المرأة وما طرأ عليه من إضافات وتغيّرات كما أشرنا من قبل.

ولهذه الاعتبارات يعتبر موضوع رى المرأة قضية جدية بالاهتمام والدراسة لبلورة أو معالجة ما يصحبه من انعكاسات على المرأة وأوضاعها وقضاياها وكذلك لتوثيق عنصر من عناصر الثقافة المادية قابل للاستمرار وخاضع للتغيّر.

لمحة تاريخية

جاءت الإشارة الى أزياء النساء عرضاً فى بعض الكتب التاريخية والتي أكدت اختلاف الأزياء بين النساء من مختلف الأعمار ومن مختلف المجموعات وفى الفترات التاريخية المختلفة .

وفى هذا الصدد أشار بركاردت فى سنة ١٨٢٩م فى ملاحظاته من زيارة الى بربر وشندى عام ١٨١٣ أنّ البنات صغار السن كنّ يلبسن غطاءً صغيراً يسمّى (الرّحط) يتدلى من الخصر وحتى منتصف الفخذين أمّا نساء الطبقات العليا فكّنّ يلبسن غطاءً أحمر بخطوط بيضاء فوق التنورة^(١) وتعنى هذه الملاحظات أنّ النساء عامّة كنّ يلبسن التنورة فقط.

ولا يختلف وصف نعوم شقير كثيراً إذ أشار الى أنّه بين عرب السودان البنت من نحو سن الخامسة تستتر (بالرّحط) وعرفه على أنّه سير من جلد يعقد حول الخصر تتدلى منه قدد دقيقة الى ما فوق الركبتين وقد تلبس فوقه (شقة) من الدمور أو تبقى عارية لا يسترها إلّا الرّحط الى أن تتزوّج فتخلعه وتلبس بدلاً منه فوطة كفوطة الحمام تعرف (بالقرقاب) وفوقها شقة أكبر منها قليلاً بحواش من الحرير تعرف (بالقرن) وفوقها ثوب من الدمور أو الدبلان أو الشاشى يشتملن بها اشتمال الصماء وتستتر رأسها حتى لا يظهر منها إلّا عيناها . والمقتدرات منهنّ يلبسن فوطة أو برصة من الحرير الملة .^(٢) ويتضح من الدراسات التاريخية أنّ أزياء القرن التاسع عشر وقبله كانت

تشمل الرّحط والقرقاب والشقة والشوب وتختلف المجموعات فـفى استعمالها ونوعية المادة المصنّعة منها . فبعض المجموعات تلبس ما يشبه الرّحط الذى هو مصنوع من أوراق الشجر كبعض القبائل النيلية فى جنوب السودان .^(٣) ونساء بعض المجموعات يستعملن الشقة فقط وهى فى شرح شقير مشابهة للشوب . وبين مجموعات أخرى تجمع النساء بين القرقاب والشقة والتي غالبا ما تكون مصنّعة من الدّمور .^(٤)

وفى عهد المهدية أصدر المهدى أمرا للنساء بتغطية وجوههنّ خارج المنزل . ومنذ ذلك الوقت بدأ انتشار ما يسمّى (البلاّمة) بين نساء الحضروهى استخدام جزء من الشوب الذى تلف به المرأة جسدها لتغطية وجهها ماعدا عينيها . . ومما ورد ذكره أعلاه فى وصف ملابس النساء قديما يتضح اختلاف المجموعات السودانية فى طريقة تغطية النساء لجسدهنّ واختلاف نوعية الملابس التى تستخدمها المجموعات المقتدرة اقتصاديا عن تلك التى تستعملها المجموعات الفقيرة .

يمكن أن نرجع الاختلافات فى طريقة تغطية الجسد الى الاختلافات الاجتماعية فى المجتمع ، فقد كانت هناك فوارق أساسية بين الملكات والسيدات الأحرار وبين الأموات (جمع أمة) وذلك فى وضعهنّ من علاقات الانتاج والحياة المنزلية والعامة .^(٥) وبالتالى هنالك اختلاف بين ما ترتديه كل مجموعة فى الذى جاء ذكره من قبل بخصوص النساء المقتدرات .

وفى فترة الاستعمار البريطانى لم تكن المرأة أحد محاور اهتمام الحكومة بالقدر الذى يخدم مصالحها ولذلك لم تهتم بالمرأة وقضاياها . ولكن ما تمّ من تغييرات معلومة فى البنية الاقتصادية الاجتماعية كان له آثاره على المرأة . فبدأ تعليم المرأة نتيجة جهود المواطنين وضغطهم على الحكومة لتوفيره كما دخلت المرأة مجال العمل فى نطاقات محدودة غير أنّه لم تطرأ تغييرات ملموسة فى القيم والأيدولوجيات التى تحكم زى المرأة وخصوصا مشاركتها فى الحياة العامة ، وعليه لم تطرأ تغييرات جذرية فى أزياء النساء .

ويذكر بعض الرّواة أنّ أسلوب غطاء الوجه كان منتشرا فـفى الخرطوم ولم تسلم منه راعدات التعليم ، والشاهد على ذلك ما كانت ترتديه طالبات مدرسة الاتحاد عام ١٩١١ من تنورة طويلة وبلّوزة

بأكمام طويلة من فوقها جاكيت بنفس لون التنورة وغطاء للشعر يتدلى على الظهر وغطاء للوجه يشبه ما تستخدمه بعض النساء فى الدول العربية . وفى نفس الاتجاه تشير دراسة حاجة كاشف^(٦) الى أن طالبات المدارس فى الخمسينات كن يسن ملثمت ولا يظهر من وجوههن غير العينين ومعهن تابع قد يكون أحيانا أخا أصغر سنا . وتسرد فاطمة أحمد ابراهيم أتها وزميلاتها المسئولات عن تحرير مجلة صوت المرأة ذهبن للمطبعة وهن يلبسن ثيابا ثقيلة لا تكشف شيئا عن أجسامهن وغطين وجوههن بحيث لا تبرز إلا أعينهن وكان ذلك فى حوالى منتصف الخمسينات .^(٧)

ولكن ما أوردناه لا ينفى وجود بعض التغيرات فى فترة الاستعمار البريطانى بالنسبة لأزياء النساء . فأولا تأثرت أزياء الطالبات والنساء العاملات فى المجالات الصحية بالأزياء الأوروبية . إذ كان ما يستخدم يشابه ما هو متداول فى مدارس ومستشفيات إنجلترا . وعموما فقد انحسر استعمال القرقاب والقوطه وخاصة بين النساء المتعلّمتات وانتشر استعمال الفستان تحت الثوب .

كذلك كان للتداخل والتواصل بين النساء السودانيات ونساء الجاليات الأجنبية فى الخرطوم أثر كبير فى تغيير زى النساء . وهناك العديد من الأسماء لأنواع الأقمشة والأزياء التى تؤكد أثر احتكاك النساء الأوروبيات بالنساء السودانيات والتأثير أكثر وضوحا بالنسبة لنساء التجار وزوجات الموظفين اللّائى يخالطن الأجانب . وقد ساعد فى ذلك وجود الأقمشة المستوردة فى الأسواق .^(٨)

ومن التغيرات التى جدت على زى المرأة أيضا استعمال الأقمشة للثوب مصتعة فى إنجلترا بدلا من تلك التى كانت تستورد من مصر أو تصنع محليا . ولكن ذلك كان بين مجموعات معينة من الطبقات المتيسرة إذ كانت أغلبية المجموعات الفقيرة تلبس ما يسمّى بثوب الزراق وهو من قماش مصرى رخيص يتم صنعه محليا وينتشر أيضا استعمال (الفراد) والبنقالى وهى أيضا أثواب مصتعة محليا كما كانت هنالك ثياب خاصة تلبسها النساء ولفترات طويلة فى حالة وفاة أحد أفراد الأسرة أو أحد الأقرباء .

من هنا يمكن القول بأن ما طرأ من تغيرات فى أزياء النساء

اقتصادية واجتماعية. (١٠)

انعكست التيارات الفكرية الثلاثة فى الأزياء التى كانت ترتديها النساء فى الخرطوم فى نهاية الخمسينات وخلال الستينات وبداية السبعينات إذ أصبحنا نرى أغلبية النساء يرتدين الثوب السودانى وتحتة الفستان ووجدنا النساء العاملات والطالبات يلتزمْنَ بالثوب الأبيض. وكُنَّا نرى مجموعة قليلة جداً غطت شعرها تحت التوب تحت تأثير أفكار مجموعة الإخوان المسلمين وفى نفس الوقت كانت هنالك مجموعة من الطبقات المتوسطة فى الخرطوم تلبس البنطلون وأزياء أخرى على حسب ما هو متبع فى أوروبا.

وتجدر الإشارة هنا الى أنه فى فترة الستينات كان هنالك اهتمام متزايد بالموضة فكانت تظهر الثياب فى شكل موضات وتطلق على بعضها أسماء معينة مثل ثوب (أسبوع المرأة) و(الأمير) الى آخره. وكان منشأ ذلك بين نساء الطبقات المتيسرة فى الخرطوم. واختلفت ثياب النساء من الطبقات الغنية والمتوسطة من ثياب نساء الطبقات الفقيرة فى المادة المصنعة والألوان كما أن التغير الى الأحسن فى الوضع الاقتصادى لدى الطبقات الفقيرة والنمو الذى حدث لها قاد بدوره الى انحسار واضح لما يسمّى بثوب (الزراق) بين هذه الطبقات. (١١)

ويختلف ما طرأ من تغيرات على أزياء النساء فى السودان اختلافاً كبيراً على ما طرأ على أزياء المرأة المصرية بعد الثورة المصرية فى سنة ١٩٥٢م وفى فترة الستينات إذ تخلت النساء المصريات عن لبس ما يسمّى بالحجاب أو الملافة. وكان هنالك اتجاه عام بين النساء خاصة فى المدن لللبس الأزياء العالمية الحديثة وصاحب ذلك قناعة عند هؤلاء النسوة بأن الأزياء العالمية بمواصفات معينة يمكن أن تكون سائرة وبالتالي لا تتنافى مع تعاليم الدين الإسلامى. (١٢)

تميزت فترة نهاية السبعينات حتى منتصف الثمانينات بتغيرات عدّة فى المجالات الاقتصادية والسياسية وكان لها أثرها المباشر على الأزياء. فقد شهد الاقتصاد السودانى تدهوراً فى كل الأوجه ويتمثل ذلك فى العجز فى ميزان المدفوعات، والاعتماد على القروض الأجنبية والتدخل السّافر للمؤسسات العالمية المالية ممّا انعكس سلباً على

الاقتصاد فانخفض سعر صرف الجنيه وبالتالي ارتفعت أسعار الأقمشة المستوردة والتي كانت تفوق الانتاج المحلى البسيط جمالا وطول عمر. وشهدت هذه الفترة أيضا انفتاحا على العالم الخارجى وازديادا فى حركة التنقل خارج السودان بالنسبة للكثير من الأسر السودانية وخاصة الطبقات الميسرة فى المدن. وبالنسبة للنساء فقد ارتفعت نسبة التعليم وتوسعت مجالات العمل والخبرات .

ولوحظ فى العقدين الأخيرين، ونتيجة للسياسات الاقتصادية المذكورة، نمو الطبقات الطفيلية وظهور أنماط استهلاكية جديدة خاصة فى جانب الأزياء. وانعكس ذلك فى إقبال النساء على شراء الثياب والمساهمة فى تغيير موضة الثياب والأزياء عامة وساعدت فى ذلك الزيادة فى أعداد العمالة المهاجرة الى الدول العربية ووفرة الأموال لديهم ووجود أسواق خاصة للثوب السودانى، وانتشرت تلك الأسواق فى بعض الدول الأوروبية مثل إنجلترا وشاركت حتى المصانع السويسرية فى المنافسة فى موضة الثوب السودانى والأزياء عامة. كما ظهرت فروع تلك المتاجر فى دول المهجر لتضمن وصول الممواد للمهاجرين فى مناطقهم. (١٣)

أضف الى ذلك وجود وسائل الاعلام المرئى والمسموع والمقروء وأبرزها الأفلام التلفزيونية والمسلسلات والتي كانت أحيانا مصدرا لاقتباس موضة للأزياء. كما كان لتوافر مجلات المرأة والأزياء من الدول العربية أثرا فيما هو منتشر من أزياء بين النساء السودانيات وخاصة الشابات فى العقدين الأخيرين.

فى نهاية السبعينات زاد نشاط المجموعات الاسلامية وظهرت الجمعيات النسوية والشبابية ذات التوجه الاسلامى وكان من أبرز قضاياها زى المرأة. واستطاعت هذه الجمعيات أن تنظم السمنارات وورش العمل والمعارض التى تدعو للحجاب وكان من نتاج ذلك ظهور جيل من المحجبات المنضويات تحت هذه الجمعيات وغيرها. وهذا الاتجاه هو امتداد لنشاط المجموعات الاسلامية فى معظم الدول العربية والتى كان من أبرز آثار نشاطاتها التغيير فى أزياء المرأة فى كثير من الدول العربية نحو (الحجاب) الذى أصبح موضوعا للدراسة والتحليل. (١٤)

كانت حصيلة السياسات الاقتصادية والاجتماعية والتأثيرات الثقافية وما تبلور منها من أفكار أن أصبحت هنالك عدّة أنماط للأزياء بين النساء السودانيات في الخرطوم. ويمكن أن نشير الى اختلافات واضحة في أزياء النساء بحسب الجيل والانتماء الطبقي. ولتتبع ما حدث من تغيير في زي المرأة عبر هذه الأجيال المشار اليها قد يكون من الضروري إعطاء وصف كامل لكل أنماط الأزياء المستخدمة، بما في ذلك أزياء طالبات المدارس والنساء العاملات، وذلك حتى يتسنى لنا مناقشة المشاكل الاقتصادية والانعكاسات السلبية التي يمكن أن ترتبط بالزّي.

الأزياء في مجالات العمل

(١) أزياء الطالبات: التغيّر واضح في أزياء الطالبات وخاصّة اللّائى في المراحل المتوسطة والثانوية العليا، فبعد أن كان فستانا يتدلّى تحت الركبتين بأكمام قصيرة وفوقه الطرحية بالإضافة الى الثوب الأبيض عند الأغلبية، أصبح منذ نهاية السبعينات، وبأمر من وزارة التربية والتعليم يتكوّن من ثلاث قطع: فستان، وبنطلون، وغطاء للرأس. ومن الملاحظ أنّ هنالك تغطية كاملة للشعر والعنق وذلك باستعمال أكثر من غطاء ولكن بالرغم من التزام معظم الطالبات بهذا الزّي فإنّ هنالك بعض الطالبات اللّائى لا يهتمن بتغطية رؤوسهنّ أو شعرهنّ وخصوصا خارج المدرسة.

(٢) أزياء العمل: توجد أزياء محدّدة للنساء في مجالات العمل المحدّدة وذلك مثل المهن الطبية والمجّندات في القسّوات المسلّحة والموظفات في المرافق العسكرية وكذلك النساء العاملات في النظافة في المرافق الحكومية. وتوفر بعض المصانع زّيّا خاصّا للعاملات وترتدى موظفات الأسواق الحرّة والطيران أيضا زّيّا محدّدا.

ما زالت معظم العاملات في مهنة التمريض يرتدين الزّي الأبيض بنفس المواصفات التي كانت سائدة منذ عهد الاستعمار ولكن من الملاحظ أنّه في السنين الأخيرة بدأ تغيّر في زي طالبات التمريض وأصبح يشبه زي طالبات المدارس ولذلك من المتوقع أن ينتشر هذا

الزى حتى بعد أن يتم تعيينهنّ فى المستشفيات . أمّا المجنّدات فقد كان زيّهنّ يتكوّن من تنورة (إسكيرت) أو بلوزة وثوب أحياناً، أمّا مؤخّراً فأصبحت كلّ العاملات فى المرافق العسكرية يلبسن زياً مكوّناً من ثلاث قطع يشبه زى الطالبات وبعضهنّ يلبسن ثوباً فوق ذلك الزى فى الطرقات العامة .

أمّا معظم المرافق الحكومية فقد وفرت لعاملتيها فى النظافة زياً موحّداً وشمل ذلك النساء . ولكن معظمهنّ لا يلتزمّن بهذا الزى . وفى بعض المصانع تستبدل النساء ثيابهنّ داخل المصانع بأوفـرول غالباً ما يوفره المصنع ، وبين طالبات المعاهد العليا كان سائداً استخدام الثوب الأبيض وتحتّه فستان أو إسكيرت فوق الركبتين وبلوزة من أى لون ولكن من الملاحظ أنّه فى السنين الأخيرة زاد عدد طالبات الجامعات والشابات العاملات اللّائى تخلّين عن الثوب ولجانّ للأزياء العالمية بأنماط مختلفة . وانتشر فى نهاية الثمانينات استخدام الثوب الأبيض المحلى باللّوان مختلفة من قبل طالبات الجامعات وبعض النساء العاملات . وبالرغم من أنّ أغلبية النساء العاملات يلتزمّن بالثوب الأبيض إلّا أنّ هناك بعض التجاوزات التى عملت إدارات العمل المختلفة على الحد منها . فمثلاً عندما لاحظت إدارات البنوك دخول ألوان على الثوب الأبيض أصدرت أمراً تلزم فيه العاملات بلبس الثوب الأبيض الخالى من أى لون . (١٥)

الأزياء خارج مجالات العمل الرسمى

أمّا خارج المجالات الرسمية فيمكن أن نشير الى عدّة أنماط من الأزياء :-

(١) الثوب والفستان :- وهو أكثر أنواع الأزياء تداولاً بين النساء وخاصة اللّائى فوق سن الثلاثين وبين النساء من الأقاليم المختلفة باستثناء النساء من الأقاليم الجنوبية ومنطقة جبال النوبة والأنفسا وإن كانت بعض النساء من هذه المناطق ممّن يعشنّ فى الخرطوم يلبسن الثوب أو نوعاً من الغطاء فوق الفستان .

ومعلوم أنّ الثوب قطعة من القماش طولها أربعة أمتار ونصف وعرضها ١٨٠ سم ، ومن مواصفاته أن يكون خفيفاً إذ أنّه ، ومنهـد الستينات ظل يصنع من القطن . ولكن طرأت مؤخّراً بعض التغييرات على

صناعة الثوب ومنها توافر أثواب ذات عرض عرض أقل يتراوح ما بين ١٤٠ و ١٦٠ سم وذلك قد يكون اتجاه من مصانع الثياب لتقليل التكلفة ، أضاف الى ذلك سببا آخر هو اتجاه بعض النساء لابتداع أنواع — من موضة الثياب . وبالتالي فهن لا يهتمن بعرض الثوب بقدر اهتمامهن بنوعيته ولونه وسعره وكذلك ونسبة للغلاء الفاحش للأقمشة القطنية أصبحت ثياب البولستر أكثر استخداما من قبل المجموعات غيـــــر المقتدرة .

فى بداية السبعينات كانت الموضة بسيطة وقد توافرت نوعيات من الثياب بأسعار مناسبة للمجموعات المختلفة وكانت ثياب التوتال الملونة برسومات بسيطة أو الخالية من الرسومات هى قمة الموضة . وكانت الفئات المقتدرة تقتنى ثياب الشيفون للسهرات . ولكن منذ بداية الثمانينات تسارع نقل موضة الثياب وتحاول الكثيرات من النساء فى العاصمة القومية اللحاق بهذه الموضة ، وقد ساعدت صناعة الثوب فى بعض الدول الأوروبية وانفتاح السوق السودانى المغترب له فى انتشار هذه الموضة وازدهارها . فى هذا الصدد تجدر الإشارة الى دور المصانع المصرية التى دخلت فى السنين الأخيرة فى مجال صناعة الثوب السودانى مما زاد عدد جهات التصنيع وأدى الى التنافس بين الجهات المنتجة وزاد العرض ونتج عنه وجود ثياب بأسعار مناسبة لبعض الفئات . وقد يكون لنمو الطبقات الطفيلية دور فى ظهور الموضة ، إذ أنها تمكنت من توفير الامكانيات المادية لنساءها حتى يدخلن فى التنافس مع نساء الطبقات المتيسرة ويشاركن فى ازدهار أنواع الموضة المختلفة دون التزام أحيانا بقيود التقاليد أو القيم السائدة فى المجتمع .

(٢) الازياء العالمية - الموضة :- ونعنى بالازياء العالمية أو الموضة هجر الثوب . وهنا للنساء عدّة خيارات . إمّا فستان أو بلوزة وتنورة (إسكيرت) أو بلوزة وبنتلون وهذه الازياء اقتصرت حتى بداية السبعينات على الشابات من مجموعة المسيحيين ، أو من الاقاليم الجنوبية ، أو بعض المجموعات التى عاشت خارج السودان لفترة طويلة ، أو بعض الأسر المتعلمة . ولكن نلاحظ منذ منتصف السبعينات زيادة أعداد الشابات اللآى يلبسن الازياء العالمية . وتتبع أغلب

هذه المجموعات الموضات فى أوربا . فالمشاهد للشابات فى الطرق أو فى المعاهد الأكاديمية أو المناسبات الاجتماعية يجد كل موديلات الأزياء الموجودة فى الأسواق الأوروبية بأشكالها وألوانها . فحتى ذوات الدخل المحدود من البنات يحاولن مواكبة التغير فى الموضات فى العاصمة القومية . ولذلك نجد من يلبسن التنورة حتى منتصف الساق وبلوزة بأكمام طويلة وتغطى رأسها بطرحة تتدلى من فوق الشعر وتلف الى الوراء حول العنق وتكون الطرحة فى لون الزى فى أغلب الأحيان ونجد من تلبس فستانا قصيرا أو بلوزة بأكمام قصيرة وتنورة دون استخدام غطاء للرأس . وهنالك مجموعات تستخدم آخر صيحات الموضات فى البنات اللين ويتضمن ذلك الجينز أو البناتلين الخفيفة ذات الألوان الزاهية التى انتشرت مؤخرا . (١٦)

(٣) الحجاب (أو الزى الإسلامى) :- الحجاب كما أسلفنا ظاهره قديمة ولم تختف فى تقديرنا بدليل استمرارية استخدام الثوب السودانى الذى هو تطبيق ما لفكرة (الحجاب) . ولكن فى العقدين الأخيرين بدأ رواج الحجاب بين النساء كمدلول سياسى واجتماعى . وفى الواقع فكل ما طرأ على الأزياء المعتادة هو فى تطويل التنورة أو الاسكيرت واستخدام الأكمام الطويلة وغطاء للرأس إما تحت الثوب أو بدونه للأذى يلبسن الأزياء العالمية . ولكن الإشارة الى الحجاب أو ما يسمى أحيانا بالزى الإسلامى ، قد تعنى أكثر من صورة لذلك الزى وذلك لاختلاف الآراء فى ماهية مكونات الزى الإسلامى . فالبعض يركز مثلا على أهمية غطاء أجزاء جسم المرأة باستثناء يديها ووجهها وقدميها دون الدخول فى تفاصيل فى شكل الزى . ونجد مجموعات ترى وجوب تغطية كل جسد المرأة بما فى ذلك العيون .

وهنالك بعض المجموعات الأخرى التى تدخل فى تفاصيل عن شكل الزى مع تحديد ألوان معينة دون الأخرى وتفصيل موديلات معينة . ففى إحدى الصحف الحائطية بجامعة الخرطوم كان من مواصفات الزى الإسلامى أن لا يبرز تقاطيع جسم المرأة ولا يكون لونه أصفر ، أو أحمر يجذب لها الأنظار ، وتضمنت مناقشة الزى الإسلامى إعطاء درجات للأزياء على أساس الأكثر أسلمة أو تقبلا بين المجموعات الإسلامية . ومن ههنا المنطق فقد صح قولنا بوجود عدة أنماط من الأزياء التى تنضوى تحت

نطاق (الحجاب أو الزى الاسلامى) نوجزها فيما يلى:-

أولاً: عند المجموعات المتشددة ومنها مجموعة أنصار الستة يتكوّن الزى من فستان طويل واسع بأكمام طويلة شبيه بجلابية الرجال من لون بيج أو رمادى فوقه عباءة إمّا رمادية أو سوداء أو بيج تصل حتى القدمين وذلك مع غطاء الشعر وفوقه غطاء آخر يتدلى من الرأس وحول العنق وينزل حتى الخصر علاوة على غطاء على الوجه يغطى العيون أحياناً. أضف الى ذلك جورب يغطى القدمين وأحياناً قفاز يغطى ما ظهر من اليدين.

ثانياً: زى الحجاب الأكثر استعمالاً هذه الأيام فى الخرطوم يتكوّن من فستان طويل بأكمام طويلة وبلوزة بأكمام طويلة وغطاء للشعر ويلبس فوق هذا الفستان أو التنوزة الثوب السودانى وتحصر المجموعات المتيسرة على ملاءمة ألوان مكوّنات زى الحجاب . فمجموعة من النساء السياسيات من حزب الأمة ،خاصة من بينت المهدى، كنّ بعد الانتفاضة ملتزمات بهذا النوع من الزى باستخدام أفخر أنواع الأقمشة والثيراب مع الحرص على تناسق الألوان، وقد يعكس ذلك محاولة لتمييز أنفسهنّ عن بقية النساء وذلك لتثبيت أيديولوجية (بيت المهدى) .

ثالثاً: هنالك غالبية من الشابات يرتدين فستان طويل بأكمام طويلة وبلوزة بأكمام طويلة وتنورة طويلة قد تظهر أجزاء الجسم أحياناً مع تغطية كاملة أو جزئية للشعر. ومن الملاحظ أنّ هؤلاء الشابات يتبعن صيحات الموضة فى موديلات التنوّرات والبلوزات وألوانها .

يتضح من هذا الوصف تعدّد أنماط الأزياء بين النساء فى الخرطوم واختلاف هياتها من النقاب الى الأزياء الأوروبية الحديثة مع ظهور اتجاه واضح لانتشار الحجاب . ووراء هذا التعدّد عدّة عوامل منها ما يعيشه المجتمع من تغيّرات اقتصادية واجتماعية بالإضافة للاحتكاك الثقافى بين المجموعات من داخل السودان وخارجه والهجرة الى دول النفط . ويعزى انتشار الحجاب الى نشاط المجموعات الاسلامية خاصة فى المدارس وما ظهر مؤخراً من انتشار لدروس دينية

للنساء فى الأحياء . أضاف الى ذلك اقتداء النساء ببعضهن البعض كما تساهم وسائل الاعلام فى نشر فكرة الحجاب خاصة فى فقرات برامج المرأة . وتشترط بعض المؤسسات التعليمية الحجاب لمنسوبيها أو المتعاملين معها . وغالبا ما تتفاعل هذه العوامل بطرق مختلفة وبالتالي يختلف تأثيرها بين المجموعات وتختلف الأزياء .

أهم التغيرات والأزياء وأسبابها

بعد وصف هذه الأزياء يجدر بنا أن نستعرض أهم التغيرات التى طرأت على أزياء المرأة وأسباب هذه التغيرات الطارئة على زى المرأة ما يلى:-

- (١) عدم التزام البنات الصغيرات بعد سن التاسعة بلبس الطرحة أو الثوب كما كان فى الماضى .
- (٢) تخلّى بعض الشابات عن الثوب حتى بعد العشرينات أو الزواج واستبداله بأزياء أخرى .
- (٣) إزدواجية الأزياء بين بعض الشابات على حسب المناسبات فهن يلبسن الثوب للعمل وللعزاء بينما يتركنه فى مناسبات أخرى أو هن يلبسن الثوب متى ما حلا لهنّ دون التقيد به فى كل المناسبات .
- (٤) استخدام كثير من النساء من الأقاليم الجنوبية ومن مجموعات النوبة للثوب أو غطاء فوق الفستان شبيه بالثوب .
- (٥) عدم التزام النساء فى المؤسسات التعليمية ومجالات العمل الرسمية بالثوب الأبيض كما كان متبعاً رسمياً .
- (٦) وضوح الاختلافات بين نوعية الأزياء التى ترتديها المجموعات المقتدرة والفقيرة .
- (٧) لجوء كثير من الفتيات من الأسر غير المقتدرة والفقيرة لإيجاد بدائل للثوب ولذلك نجد أنّ كثيرا من الفتيات استخدمن أنماط الحجاب السائدة ليس لأسباب ضغوط أسرية أو انتماء لمجموعات دينية بقدر ما هو مخرج لعدم الرغبة من الخروج من الأطوار المقبول للأزياء اجتماعياً .

ومن الجانب الآخر فإنّه قد يصعب الإشارة الى سبب محدّد لما طرأ من تغيّرات فى الأزياء . فالتجديدات هى انعكاسات لمجمل التغيّرات

التي طرأت على البيئة الاقتصادية الاجتماعية للمجتمع فى الفترات التاريخية والمختلفة . ولكنه ربما كان لعامل معين دور أكثر فعالية من العوامل الأخرى فى فترة زمنية معينة . من الأهمية أن نذكر أن التغيرات التي طرأت على زى المرأة تغيرات شكلية ولم تخرج من إطار الحجاب كثيرا وذلك للأسباب الآتية :-

(١) إن الزى عنصر ثقافى يرتبط بمعتقدات ومفاهيم راسخة فى المجتمع .

(٢) التغيرات التي طرأت على وضع المرأة كانت محدودة .

(٣) حرص رائدات الحركة النسائية على استمرارية الأزياء التقليدية حتى لا يجرى تهميش قضية المرأة بالتركيز على المظهر .

(٤) عدم اهتمام الحكومات المتعاقبة بقضايا النساء عامه والزى خاصة .

ولكن بالرغم من أن التغيرات فى أزياء النساء لم تخرج كثيرا من إطارها المتعارف عليه إلا أن لها أهمية اقتصادية واجتماعية يمكن أن نلخصها فى الآتى :-

(١) الأزياء عامة فى ظل الظروف الاقتصادية أصبحت عبئا اقتصاديا

على الأسرة فى المجتمع وزاد من ذلك العبء ظهور الموضات وإقبال النساء على تلك الموضات الذى يعنى ارتفاع الأسعار أكثر فأكثر . ومن الملاحظ أن معظم الأزياء الجديدة ، العالمية منها أو الحجاب ، تحتاج الى كمية من القماش قد تعجز كثير من الأسر على تغطيتها سواء أكان لبناتها للمدارس أو للنساء للاستعمال اليومي . وذلك قد يفسر رواج تجارة الملابس المستعملة منذ منتصف الثمانينات .

(٢) بالتركيز على المظهر ، والاهتمام بالموضات بين كثير من النساء

وخاصة من الطبقات الغنية اختل التوازن الذى كان موجودا بين النساء فى لبس ما هو ملائم للمناسبات وأصبحت بيوت العزاء مناسبات لاستعراض الامكانيات الاقتصادية ، فنجسد مهرجانات من الألوان الزاهية الجذابة والشباب التى يصل سعرها الى الآلاف من الجنيهات . وبما أن ذلك سائد بين النساء من الطبقات الأخرى ، حتى الفقيرة منها ، بلبس أحسن ما عندهن

لمناسبات العزاء وإعادة لبسه للمناسبات الأخرى. ولذلك نجد اختلافاً في التوازن من ناحية اختيار الألوان عامّةً ونوعية الثياب، التي أصبحت أحياناً تتناقض مع أهداف الحضور للمناسبة المعينة. وقد ينطبق ذلك على بعض النساء العاملات وطالبات المعاهد والجامعات إذ أنّه واضح أنّ هنالك خلط فيما يمكن أن يلبس للعمل والدراسة وما يلبس في مناسبات أخرى. فالتركيز على المظهر قد يصرف المرأة عن التفكير في قضاياها الأساسية المرتبطة بوضعها في المجتمع وعدم تنظيم الأزياء أو ملائمتها للمناسبات ويعكس ذلك تدنياً في مستوى وعي النساء.

(٣) استخدام الزى كعنصر سياسي واجتماعي يرتبط بسلوك المرأة وتوجهها يقود الى بث انقسامات جديدة في صفوف النساء تعوق نضال المرأة لتوحيد صفوفها والاهتمام بتحسين أوضاعها.

(٤) زى العمل وما به من تغييرات يعكس سلبيات ويفرز اشكاليات. فهناك غياب التنظيمات بين النساء العاملات لمناقشة مشاكلهنّ وطرح الحلول والمشاركة في اتخاذ القرار فيما يختص برى العمل. وقد يتبادر للذهن في هذا الصدد العديد من الاسئلة، لماذا مثلاً الاصرار على ارتداء الأبيض في العمل في ظل ظروف الغلاء والمعاناة التي يعيشها الشعب السوداني فيها؟ وإذا أخذنا علماً بتكدس النساء في المهن ذات العائد المنخفض فكيف تستطيع النساء توفير زى العمل؟ هل ارتداء الأبيض في العمل عرف وإذا كان الأمر كذلك فلماذا تصر عليه بعض الإدارات في المرافق الرسمية أو لماذا يكون لبس غير الأبيض مشار دهشة وتساؤل؟ لماذا لا يحدّد لون معين لأزياء الرجال؟ وإذا استطاعت المرأة أن تتخلّى عن الأبيض هل بإمكانها بلورة وعي لادراك ما هو مناسب للعمل يحل ويأخذ رمزية الأبيض؟ أم سينعكس ما هو سائد من خلط في المجتمع عامّة في مجتمع العمل؟

الخاتمة

أشارت كلمتي هذه الى بعض أنماط الأزياء التي كانت تلبسها النساء في فترات تاريخية مختلفة واتضح أنّ هنالك بعض التغييرات

التي طرأت على أزياء المرأة . وما طرأ من تغيّرات على زي المرأة في الخرطوم كان تغيّرا شكليا إذ تغيّرت طريقة لبس الثوب باختفاء (البلازمة) منذ الخمسينات ، كما طرأت تغيّرات في نوعية القماش المستخدم للثياب وأشكال الرسومات عليه في فترات مختلفة إذ تظهر في كل فترة موضة من الثياب وتختفى لتظهر أشكال أخرى. أمّا ما ترتديه المرأة تحت الثوب فقد طرأ عليه أيضا تأثير واضح بالأزياء العالمية إذ اختفى القرقاب والتنورة والرّحط .

كان من سمات العقد الأخير ظهور اتجاه واضح بين جيل الشباب في الخرطوم بالتخلّي عن الثوب ومحاولة إيجاد بدائل من أشكال الحجاب لأسباب دينية أحيانا وسياسية واقتصادية أحيانا أخرى. واتجهت بعض المجموعات الى الأزياء العالمية كبديل للثوب وقد كان واضحا اختلاف الأزياء بين الفئات العمرية المختلفة وبين النساء من الطبقات الاجتماعية المختلفة. وحاولت في المقالة ربط ما طرأ من التغيّرات على الأزياء كعنصر ثقافي، بالتغيّرات في بنية المجتمع الاقتصادية الاجتماعية وتأثير ذلك على أوضاع وأدوار المرأة وما تعيشه كثير من النساء من تدنّ في الوعي، ومن الملاحظ أنّ ما تم من تغيّرات يعكس توجهات مختلفة للنساء ومتناقضة .

الهوامش

- (١) J.L. Burkhardt, Travels in Nubia .(London 1982).
- (٢) نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان (بيروت : ١٩٦٧) ص ٢٥٤
- (٣) G.G. Seligman and B.Z. Seligman, Pagan Tribes in the Nilotic Sudan .(London, 1932).
- (٤) أنظر شقير، جغرافية، صفحات ٢٥٤ - ٢٥٥
- (٥) فاطمة بابكر محمود، "دور المرأة في نشأة الدولة الرأسمالية في السودان"، عند ناهد طوبيا (محرّر) التحديات التي تواجه المرأة العربية في نهاية القرن العشرين (القاهرة، ١٩٨٨، صفحات ٢١٩-٢٤٠)
- (٦) حاجة كاشف بدري، الحركة النسائية في السودان (الخرطوم، ١٩٨٥)
- (٧) فاطمة أحمد ابراهيم، حصادنا خلال عشرين عاما (الخرطوم، بدون تاريخ)

- (٨) G.E. Tayeb, "Women's Dress in Northern Sudan," in S.Kenyon (ed), The Sudanese Woman (Khartoum,1987).
- (٩) فاطمة أحمد إبراهيم، حصادنا، ص ١٤٦
- (١٠) نفسه، صفحات ١٦٩ - ١٩٧٥
- (١١) شوب "الزراق" هو شوب طوله أربعة أمتار ونصف ترتديه النساء السودانيات وهو من قماش مصّنع في مصر، رخيص التكلفة، ويتم صنعه محليا باللون الأزرق. أنظر سامية النقر وآخرين "أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية على الزى والزينة في السودان"، (تقرير بحثي ١٩٨٩ غير منشور).
- (١٢) J.A. Williams, " Veil in Egypt as a Political and Social Phenomenon," in J.L. Esposito (ed.), Islam and Development Religion and Sociological Change (New york,1980), pp.71-86
- (١٣) أنظر سامية النقر وآخرين، "العوامل الاقتصادية"، صفحات ١٢-١٨.
- (١٤) Williams, Veil in Egypt, pp.71-86
- (١٥) تضمّنت لائحة سلوك العاملين بمجلس الوزراء أمرا بلبس النساء للشوب الأبيض.
- (١٦) أنظر سامية النقر وآخرين، "العوامل الاقتصادية" صفحات ٢٢-٢٤.